

قراءة نقدية لمذكرة ألفونس دودي "في مليانة"¹

الأستاذ: عيسى عطاشي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

إن دراسة صورة المجتمع الجزائري في مذكرة ألفونس دودي "في مليانة" (A Milianah) تتطلب استخلاص السمات المكونة للصورة، ودراستها. وهنا نبحت عن:

- دقة الصورة في تعبير الكاتب عن أحاسيسه، وتصوراته نحو موضوع الصورة، بأسلوب مؤثر. بغض النظر عن مطابقة ذلك التصور للواقع، أو عدم مطابقته.

- تحديد ما طرأ من خيال وانحراف على الصورة. لأن الصورة الأمينة غير موجودة، وحتى غير هامة.

- العوامل الثقافية والشعورية، الموضوعية والذاتية، التي ساهمت في تكوين هذه الصورة.

- الكيفية التي ينظر وفقها الكاتب إلى نفسه (الثقافة الناطقة) من خلال صورة المجتمع الجزائري (الثقافة المنظورة).

و لعل ما يعيننا للإجابة عن هذه الأسئلة، هو معرفة الأسباب التي دفعت الرحالين الأجانب للإهتمام بالجزائر كبلد عربي شرقي.

يمكن أن نقسم هذه الأسباب إلى ذاتية وموضوعية، أما الذاتية فاهمها :

- حب السفر والرغبة في التمتع بطبيعة الشرق.

- حن الجازفة والمغامرة والخطارة.

- ما يجنيه الرحالة من فوائد علمية وثقافية، ومادية، وما تدره عليه رحلته من أموال، إذا ما كتبها ونشرها.

يقول فريدرش شليجل "علينا أن نبحث في الشرق عن أسمى المواد والصور الرومنتيكية"². "كان فلووير" يذوب شوقا إلى الشرق، ليبحث فيه عن صور (...) وقد رحل كثير من الرومانتيكيين إلى الشرق ، ليحققوا هذا الحلم. وبقي عند كثير من لم يسافروا حنين واله إلى طبيعة الشرق العجيبة "³.
و قد تتبع الباحث " جان ديجو" نظرة الفرنسيين للجزائر فقال : "من

1830 إلى 1900 ، كانت النظرة للجزائر على أنها أرض مغامرات ، ومصدر

أحاسيس جديدة. أرض مغامرات من خلال مشاهدات العسكريين، ومذكرات الجنرالات، وتقارير مراسلي الحرب. أرض أحاسيس جديدة لدى الأدباء والسواح
4» ...

و أما الأسباب الموضوعية فأهمها :

- تعريف القراء الأجانب بالجزائر لتشجيعهم على الهجرة إليها وإستيطانها⁵.
 - إعداد التقارير المفصلة عن جغرافيتها ، وطبيعتها، وأوضاعها الاجتماعية، وإمكاناتها المختلفة، لإحكام السيطرة عليها أكثر، واستعمارها إلى الأبد⁶.
- وإننا نلمس ونحن نطالع مذكّرة ألفونس دودي، أنه كان حريصا كل الحرص على ذكر جميع التفاصيل، والجزئيات التي تفتح أمام الدارس الأجنبي مجالا واسعا لدراسة نفسية المجتمع الجزائري، والتطورات التي تطرأ عليه، مما يساعد على تفسير تصرفاته، ومواقفه. وقد يضع هذا الدارس هذه الدراسات الاجتماعية والنفسية بين يدي دولته الإستعمارية لتستعين بها في وضع الخطط، والسياسات الكفيلة بتدجينه واحتوائه. إن مجتمع مدينة "مليانة" الذي يصفه الكاتب ألفونس دودي في مذكّرتة "في مليانة"، يتكون من الفرنسيين المستعمرين، والجزائريين المسلمين الذين يتشكلون من العنصر

العربي والتركي والزنجي، واليهود، والأجناس الأجنبية المختلفة، من أسبان وإيطاليين ومالطيين. وغيرهم الذين حازوا الحقوق الفرنسية بواسطة التجنس ، وقوانينه الواسعة.

و يمكن أن يتعرف القارئ على الوضعية الاجتماعية لكل طبقة من هؤلاء، وذلك لما ينقل الكاتب أوصافا لشخص أو فئة تنتمي إلى هذه الطبقة أو تلك⁷.
و خشية أن تطول بنا الدراسة، فإننا نقتصر منها على عنصرين هما: صورة الجزائري العربي، وفضاء المكان.

1-صورة الجزائري العربي : الواقع أن ألفونس دودي حينما يسجل مشاهداته

وملاحظاته عن العنصر العربي، لا يهتم إلا بالأوصاف الجسمية، والمظاهر الخارجية. ويحرص أن يعبر عن مواقفه وأحاسيسه، إنطلاقا مما تشربه من ثقافة فرنسية، وتصور غربي عن الآخر الأجنبي.

وأول لوحة تعبيرية ينقلها للعربي هي صورة ضريح لأحد الأولياء⁸ حيث شملت عباراته ألفاظا صريحة، هي في الحقيقة لدغات مؤلمة، تدل على مشاعر حقد وتعصب متنامية ضد مقدسات المسلمين. ولم يكتف الكاتب بالوصف والتعليق على الضريح كما شاهده، ولكن أوصافه وتعليقاته الساخرة ، المتهكمة، التي تحمل روح النكاية والتشفي، إمتدت إلى من يرقد في هذا الضريح، وهو الولي العربي المسلم الذي يرمز إلى حضارة وانتماء وهوية وتاريخ الشعب الجزائري وفي الحقيقة إن دودي عندما يرسم هذا المشهد ، يلجأ إلى التعارض والتقابل، وذلك بإبراز صورة معارضة أو مناقضة للأولى، حتى تتضح حقيقة ما يريد التعبير عنه، بإعتماد السرد تارة، والإيحاء تارة أخرى. حيث نجد التعارض والتقابل بين ضريح الولي، ومقر البلدية، فهذا المكان

كان مهجورا موحشا يسكنه الأموات، فلما جاءت فرنسا حولته إلى مقر بلدية، فأصبح عامرا يعج بالحركة، يستفيد منه المواطن بما يقدمه له من خدمات إدارية. إن التأمل في هذه الصورة، يدرك بالبديهة أن ضريح الولي أراد الكاتب أن يرمز إلى فترة تاريخية سابقة قد زالت وانتهت، بل قبرت كما قبر هذا الولي تحت التراب. أما مقر البلدية فهو يرمز إلى مرحلة تاريخية جديدة، تبدأ بدخول فرنسا إلى الجزائر. إن مقر البلدية يمثل الدولة الفرنسية بما تفرضه من سلطة وهيمنة على الشعب الجزائري، كما يرمز إلى ما وصلت إليه هذه الدولة من مستوى راق في التنظيم، والعمل الحضاري المتقدم.

إن شقاء وتعاسة هذا الولي، هي مبعث وتعاسة الشعب الجزائري الذي هزم في عقر داره، وحولت أماكنه المقدسة إلى كنائس رغما عنه، يسمع نواقيسها تدق كل يوم أحد.

وقد تمثل الكاتب في صورة خيالية أن الولي يحيا من جديد، ليوضع على صدره إطار البلدية الضخم، ويتحول إلى عامل تسخره السلطة الفرنسية ، ليعطي كل يوم أحد لكنائس مليانة إشارة دق النواقيس. ومن يدري فلعل الكاتب أراد أن يشير من طرف خفي إلى أحد أدوار الاستعمار الفرنسي، وهو تمسيح المسلمين الجزائريين .

وينقل في مكان آخر صورة لأطفال عرب يلعبون⁹. لاحظ كيف يتفاعل سلبا مع منظر الطفولة البريء في أصفى لحظاتها، لحظات اللعب والمرح. فهو لم يلتفت إلى منظرهم البائس، فتتحرك فيه مشاعر الإنسانية المفعمة بالحزن والمواساة والتعاطف. بل أزعجه صوته الملائكي الجميل، فهو عنده يشبه صياح الوحوش الكاسرة المفترسة.

وحتى نصل إلى حقيقة هذه الصورة، لابد أن ندرسها من وجهة نفسية ، تمكننا من تلمس خلفياتها اللاشعورية. إن الكاتب وهو ينظر إلى هؤلاء الأطفال الصغار، غارقين في عالمهم الطفولي البريء، قفرت إلى شعوره صورة آبائهم

المجاهدين الذين يحملون السلاح في وجه دولته المستعمرة، فتخيلهم وحوشا تخيفه بأصواتها، لاسيما وأن الكاتب زار مليانة في فترة اشتدت فيها الثورات الشعبية.

يبدو أن أكثر ما كان يهم الكاتب هو تقديم الجزائري العربي إلى أبناء جلدته الفرنسيين والأوربيين عموما ككائن أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان: متشرد يسكن الكلاب الضالة، قذر، همجي، منظره يبعث على الخوف والتقزز10 ، منبوذ، مكروه، مشته فيه، لص وسارق، يؤمن بالوهم والخرافة، ويعيش على الكآبة والحزن والأحلام. يشير ألفونس دودي إلى كل هذه الصفات الذميمة من خلال ثلاثة مواضع: الأول عندما يتهم الأمير عبد القادر بقتل أم سيد عمر، ونهب وتخريب ممتلكاته11. أما الموضع الثاني فعندما يشير إلى حادثة السبحة المسروقة12.

وعندما يصف ألفونس دودي تلك المرأة المتشردة، التي كانت بالقرب منه ترضع ابنها13، لا يلتفت إلى وصف مأساتها، وحالها المزرية، ولا يشير من قريب ولا من بعيد لقساوة الظروف الاجتماعية التي تعانيتها. ولم يحرك مشاعره الإنسانية طفلها الرضيع العاري تماما. وإنما يلفت انتباهه، ويحرك غريزته البهيمية جمال صوتها، وجمال صورتها، ورقبتها وساقها المكشوفة. إن هذا موقف سلبي، إن لم نقل أنه استغلالي، فلا همّ للكاتب سوى المتعة الحسية، والفنية. فأية متعة هذه، وأية أحاسيس هذه؟!

نجد ألفونس دودي ينطلق دائما من خلفيات وأحكام مسبقة، عرفتها القرون الوسطى وتسلمت إلى اللاوعي الجماعي في الغرب، حيث إن المعجم الذي يستمد منه الكاتب ألفاظه وكلماته في المذكرة، لا يخلو من كلمات مشحونة بالعداء والاستعلاء، ما يجعل كتاباته تتسم بالطابع العنصري في أغلب الأحيان، حيث لا تنقل إلا الصورة السلبية التي تعمق في خيلة ونفسية الأوربي صورة كيان قبيح، مضرّ وخطير.

والحقيقة أن الحوار بين الثقافتين النازرة والمنظورة في مذكرة ألفونس دودي لم يؤدّ إلى تبادلات مثمرة وإيجابية، بل العكس هو الصحيح.

2- فضاء المكان: يدل المكان على الشخصية التي تقيم فيه، كما أن الشخصية

تعكس صورة المكان. فهناك تفاعل بين المكان والشخصية.

إن التفاعل بين وصف المكان وألفونس دودي، يدل على انسجام في التفهقر النفسي، فهو يشعر عند زيارته لمدينة مليانة بحزن عميق وضيق شديد، لقد طغى القلق والحزن على كل شيء في هذه الغرفة الصغيرة التي يسكنها بالفندق. فتعاسة المكان وردائه تدلان على ما يختلج في وجدانه، فهذه الموجودات المحيطة به تدل على أفكاره، وعواطفه، وتزيدها ثقلا كلماته التي اختارها لوصف المكان: (ينذر بالسقوط، رمادية، الغيوم، حزين، الصغيرة، الأسوار، منقوص الصفحات، وفاة، النجمة المضطربة. 14)، و يشير في مكان آخر إلى الموسيقى والألحان الوطنية المنبعثة من الثكنة الفرنسية، التي تحرك في وجدانه مشاعر الحنين إلى الوطن، وتستثير فيه ذكريات جميلة، وأوقات ممتعة، عاشها بين أقاربه وأصدقائه هناك في فرنسا 15. وما عمق فيه هذا الإحساس أكثر، الفراغ الرهيب الذي كان يخترق نفسه فيمزقها في عطلة الأسبوع (الأحد)، حيث تنعدم الحركة، ويقل النشاط ويصبح للوقت خطى ثقيلة، وثيدة، يسحق المرء سكونه القاتل المميت، فلا ينقذه منه إلا مطالعة الكتب الموجودة بغرفته الصغيرة، وتدخين السجائر 16.

ومن جانب آخر فإن المكان الذي كان يمكن به يدل على طبقته الراقية، ومكانته العلمية المرموقة، والسمة التي كان يحضى بها لدى الحاكم الفرنسي.

تتابع الرؤى والصور، فينقلنا الكاتب إلى البلدية، بإطارها الضخم، والساحة الكبيرة، التي تنتظم بها فرقة الصف الثالث الموسيقية حول قائدها 17 ليظهر ما ترمز إليه هذه الأمكنة من مظاهر قوة الدولة الفرنسية، وأهمتها، وسطوتها،

وتنظيمها الإداري والعسكري المحكم والفعال وفي مشهد آخر يرصد ألفونس دودي مشاهدته للأسوار العربية، عبر نافذة غرفته الصغيرة بالفندق 18. والملفت للانتباه أن الكاتب يعود في آخر مذكرته، إلى ذكر فضاء الأسوار، وهو يقفل راجعا إلى الفندق 19.

إن ذكر فضاء الأسوار بداية، وتكرره نهاية يغرينا بالتأمل وإمعان النظر قصد البحث عن مدلوله النفسي الوجداني، وإبراز معناه الرمزي الذي يمنحه عمقا معنويا وأديبا.

أما مدلوله النفسي الوجداني، فإنه يبرز مدى التطور الحاصل في مشاعر وأحاسيس الكاتب. حيث يأتي تعبيره الوجداني، وهو يشاهد الأسوار العربية في بداية زيارته لمدينة مليانة، أول النهار، كاشفا لأحواله النفسية التي يخيم عليها القلق والكآبة والضيق. ونشاهد الكاتب في آخر المذكرة يسير على مهل راجعا إلى الفندق، بمحاذاة الأسوار حيث يأتي تعبيره دالا على الابتهاج والمسرة والرضي، كاشفا تغير أحواله النفسية. فهذه الأسوار التي كان يراها من بعيد، تثير فيه القلق والحزن. ها هو في النهاية يسير على مهل بمحاذاتها، وكأن علاقة حميمة نشأت بينه وبين هذا المكان، الذي يلتصق بأسواره ويعز عليه أن يغادره.

وأما المعنى الرمزي لفضاء الأسوار المتكرر في بداية ونهاية المذكرة، فيمكن أن ندركه بالرجوع إلى الإستنتاجات التي خلصنا إليها أثناء الدراسة والبحث، لتساعدنا على تحليل هذه الصورة الرمزية، واستكناه مدلولها.

يبدو أن ألفونس دودي لما دخل مدينة مليانة في بداية النهار، إنبعثت من لا شعوره وطف على سطح مشاعره هواجس الحذر، والخوف، من هذه المدينة المتحصنة، وراء أسوارها العربية. ولكن سرعان ما زالت هذه الهواجس وتبددت في نهاية النهار، بعد أن اطمأنت نفسه إلى أن المدينة خاضعة، مستسلمة لدولته فرنسا .

ولعلّ ما يدعم اجتهادنا في تأويل هذا المعنى الرمزي، هو أن الكاتب في العبارة الأولى ذكر الأسوار منسوبة إلى العرب فقال "الأسوار العربية"، وفي العبارة الثانية في نهاية المذكرة ذكر الأسوار مجردة من هذه النسبة فقال: "...محاذاة الأسوار". ولا يخفى على الناقد البصير الفرق الدلالي بين العبارتين.

يجمع ألفونس دودي في مشهد واحد صورا لأمكنة ثلاثة: ضريح أحد الأولياء، والبلدية والكيمة²⁰، محاولا أن يشحن هذا الفضاء بصراعات إيديولوجية، وثقافية، وحضارية قائمة بين الشرق العربي المسلم المتخلف، الضعيف، المهزوم، وبين الغرب القوي المتقدم.

ونجده في مكان آخر يثير الأحاسيس والمشاعر نفسها، لما يجمع في مشهد واحد بين فضاء المسجد، وهو أقدس مكان لدى المسلمين، وبين الفناء المورسكي المجاور له الذي تكدّس تحت أقواسه مشردو مليانة وفقراؤها²¹.

يُنص الكاتب في مذكرته إقامة سيد عمر²² بأوصاف مختلفة رائعة، فهو يسكن قصورا جميلة، ظليلة ، مليئة بأشجار البرتقال وعبون المياه... يعدّد مأكولاته الشهية، ومشروباته اللذيذة، بما فيها الخمر، وأثاثه الفاخرة. حيث يستطيع القارئ أن يتخيل حياة سيد عمر المنعمة، المترفة، قبل أن يراه، لأن بحجة المكان وجماله تدلان عليه.

ويركز الكاتب أحيانا على جمال لونه وملامحه، لأن هذا الجمال يمثل دورا مهما في حياته فهو مظهر الأناقة، والرخاء والسعادة وفي سياق آخر يشير ألفونس دودي للكيفيات التي كانت تفض بها الخصومات، وتسوى بها النزاعات، حيث كانت تعتمد طريقتان:

- الطريقة الأولى: وهي عرفية تتم بعقد سيد عمر، جلسات في منزله، خاصة بالنظر في النزاعات وردّ الحقوق إلى أصحابها.

-الطريقة الثانية: وتتمثل في عرض القضايا الخلافية بين السكان على قاضي الصلح الفرنسي، ليفصل فيها ويصدر بموجبها أحكامه النهائية²³.

و الظاهر أن فرنسا لم يكن يهمها تحقيق العدل، برّد المظالم وإنصاف المظلومين، فقد كانت تسند هذه المهمة إلى من تثق في ولائهم، دون النظر إلى ما سوف يتحقق على أيديهم من عدل. فسيد عمر الذي كان يتولى هذه المهمة بالطريقة العرفية، يكشف في تعامله مع اليهودي ضعف شخصيته، وخبثه، وسوء طويته. لقد كان سيد عمر شاهداً على ما تعرض له اليهودي - في حضرته - من ضرب وشتم، وإهانة، من قبل كل الأجناس، غير أنه لم يستنكر، ولم يبد أي معارضة أو استياء، بل كان يشارك الحاضرين مشاعر السرور والغبطة، جراء ما لحق بالشيخ اليهودي²⁴.

أما قاضي الصلح فقد وسعت فرنسا صلاحياته، وعددت مهامه، وأطلقت يده في إصدار الأحكام الجائرة. والكاتب يشير إلى هذا التعفن الإداري، الذي كان يصيب جهاز العدالة عندما يتعرض إلى وكلاء الأعمال، الذين لم يكن لهم قانون يحدد مهامهم، وينظم أعمالهم، ويضبط صلاحياتهم. فهم ينتشرون كالجراد يتقبلون زبائنهم في المقهى، قريبا من دفع مصاريف المكتب²⁵.

يسجل الكاتب في مذكرته جانبا من النشاط الثقافي الترفيهي، ممثلا في المسرح، حيث خصص لممارسة هذا النشاط مكان، كان في الأصل مخزنا لعلف الحيوانات، يبدو أن المشرفين عليه اجتهدوا في تنظيمه، ليجلبوا إليه أكبر عدد من المتفرجين أما الممثلون فأغلبهم من الرجال، يتمتعون بالحياة والمرح، تشاركهم قلة من النساء من بينهن يهوديتان²⁶. والذي يسترعي الانتباه - هنا - ملاحظتان:

أ - اهتمام المجتمع الملياني بارتياح المسرح، ومتابعة عروضه، وإن ذلك ليدلّ على صفات إيجابية، كان يتميز بها المليانيون، على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، أهمها الانفتاح وسرعة الاندماج، وروح التعايش. فلأول مرة ينقل لنا الكاتب، صورة يظهر فيها العربي جنبا إلى جنب مع اليهودي، يجمعهما عمل مسرحي مشترك، يتعاونان على تأديته في جو ثقافي، ترفيهي.

ب- حرص اليهود على ممارسة فن التمثيل، وبذل الجهد لإتقانه، والتفوق فيه. ولا شك أن الدافع إلى ذلك، كما يصرح الكاتب باستهزاء، هو كسب المال، وتحقيق الثراء، الذي يمكن اليهود من النفوذ، والسطوة، والجاه. 27.

يعبر الكاتب عن إعجابه بالفضاء الطبيعي لمدينة مليانة، فيبدو أنه قد سحرته مناظرها فاهتم بوصفها، وكان يبدى تفاعلا وجدانيا نحوها 28. إن أكثر ما كان يمتعه هو تنوع المناظر الطبيعية، أما المناظر الإنسانية البائسة، فيصفها ببرودة، ويعلق عليها باستهزاء.

وما أستنتجه في النهاية أن ألفونس دودي لم يكن شخصية عادية، بل إنه يمتاز بالذكاء الحاد، والدهاء الماكر، والفضولية المتطلعة إلى كل شيء، يحب المغامرة، حاد النظر يهتم كثيرا بالتفاصيل. قد هيا له الاستعمار ظروف الإقامة الجيدة، ومكنه من ربط علاقات صداقة وطيدة، بكثير من الشخصيات الجزائرية، والفرنسية، التي سهلت له المهمة وساعدته على تنفيذها بنجاح، فكان يتحرك داخل مدينة مليانة، وبين أجناسها المختلفة بكل حرية وأمان، لا يخشى على نفسه الأذى، يتابع الأحداث، ويسجل ملاحظاته بدقة متناهية.

إن قراءتي لكتابه "رسائل طاحونتي"، وعلى الخصوص مذكرته "في مليانة"، يجعلني أبدي إعجابي بأسلوبه، وطريقة تناوله لهذه المواضيع المختلفة، وعرضها من خلال لوحات تصويرية رائعة، تموج بالحركة والتفاعل، محدثة جوا من الصراع، شبيها بالأجواء الدرامية للرواية .

الهوامش

¹ - ألفونس دودي كاتب فرنسي ،ولد عام 1840 وتوفي عام 1897 .اما مذكرته "في مليانة" فهي توجد ضمن رسائله التي ضمها كتابه المعنون ب: "رسائل طاحونتي" (Lettres de mon moulin). وقد كتب هذه المذكرة سنة 1862 لما زار مدينة مليانة .

² - نقلا عن محمد غنيمي هلال. "الأدب المقارنة". دار العودة ودار الثقافة. بيروت.

ط5. (د.ت): 424, 425

³ - 425، المرجع نفسه ص: 424

⁴ - عبد المجيد حنون. صورة الفرنسي في الرواية المغربية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

1986. ص: 43

⁵ - ينظر أبو العيد دودو.. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855). الشركة الوطنية

للنشر والتوزيع. الجزائر. 1975. ص: 7, 8

⁶ - ينظر عبد المجيد حنون. صورة الفرنسي في الرواية المغربية. ص: 90, 91

⁷ - الفرنسيون ص: 182 - الجزائريون ص: 182, 183, 184, 190, 191, 192

193, 194 -، اليهود ص: 185, 186, 187, 188, 189, 194, 195. الأجناس الأخرى

Alphonse DAUDET. LETTRES DE MON MOULIN. ENAG / EDITION 186 ص:

1994. Contes. Ouvrages présenté par Tahar DJAOUT.

⁸ - LETTRES DE MON MOULIN. P: 181, 182

⁹ - LETTRES DE MON MOULIN P: 182

¹⁰ - LETTRES DE MON MOULIN P 191, 192, 190

¹¹ - Ibid p 183

¹² - Ibid p 190

¹³ - Ibid p 192

¹⁴ - Ibid p 181

¹⁵ - Ibid. p 182, 183

¹⁶ - Ibid p: 182, 183, 181

¹⁷ - Ibid p 182

¹⁸ - Ibid p 181

¹⁹ - Ibid p 195

²⁰ - Ibid p 183

²¹ - Ibid p: 191, 192

²² - سيد عمر أمير تركي كان حليفا للأمير عبد القادر ثم اختلف معه وأعلن ولاءه للسلطة الفرنسية. Ibid

p: 183

²³ - Ibid p 185

²⁴ - Ibid p 185, 186

²⁵ - Ibid. p 189

²⁶ - Ibid. p 194, 195

²⁷ - Ibid. p 194

²⁸ - Ibid. p 181, 195

